نموذج التضافر النقدي- اللساني من منظور عبد السلام المسدي.

The model of Synergy- Critical-linguistic from the perspective of Abdul Salam .Al-Masadi

نورالدين دريم

قسم اللغة العربية جامعة الشلف

Nour_drim@hotmail.fr

تاريخ الاستلام: 2019/11/30 تاريخ القبول:2020/05/05

الملخص:

تدرس علاقة النقد باللسانيات في إطار الدراسات البينية، من أجل الوقوف على البعد المعرفي المشترك بينهما، وقد نادى غير دارس بنهج هذا السبيل لإدراك العلاقة بين النقد والعلوم الأخرى، وكان من أولئك الدارسين " عبد السلام المسدي"، الذي اعتنى بهذه القضية، وعمل جاهدا على إيجاد العلاقة بين النقد واللسانيات في كثير من مؤلفاته، حيث رأى أنّ تطوير النقد الأدبي يتطلب وعيا كافيا بموضوع الاستثمار المعرفي لدى الناقد؛ حتّى يتسنى له تحديد متطلباته واحتياجاته المنهجية والمعرفية، وكذا آلياته الإجرائية لرسم مشروع تحديثيّ له. ذلك ما نحاول الكشف عنه في هذه الدراسة.

الكلمات المفتاحية: النقد، اللسانيات، المسدي، الدراسات البينية.

abstract:

The study of the relationship of criticism with linguistics in the framework of interdisciplinary studies, in order to identify the common knowledge dimension between them. To find the relationship between criticism and linguistics in many of his works, where he believed that the development of literary criticism requires sufficient awareness of the subject of knowledge of the critic; in order to be able to

determine its requirements and needs methodological and cognitive, as well as its procedural mechanisms to draw up a modernization project. That's what we're trying to reveal in this study.

Keywords: Criticism, Linguistics, Mesadi, Inter-Studies.

مقدمة:

لا يختلف اثنان في أنّ النقد انبثق من رحم الأدب، وقد نشأ في كنف التلاحم مع علوم أخرى لا سيما العلوم الإنسانية، فإن فسّر هذا التلاحم في القديم على أساس موسوعية المؤلِف، فإنّه فسّر حديثا ضمن ما يعرف بالتضافر المعرفي بين العلوم، الذي انبنى على معالم واضحة وأهداف محدّدة، وقد نادى غير دارس بنهج هذا السبيل لإدراك العلاقة بين النقد والعلوم الأخرى، وكان من أولئك الدارسين " عبد السلام المسدي"، الذي اعتنى بهذه القضية (التضافر المعرفي بين العلوم)، ودأب يعمل جاهدا على إيجاد العلاقة بين النقد واللسانيات في كثير من مؤلفاته، حيث رأى أنّ تطوير النقد الأدبي يتطلب وعيا كافيا بموضوع الاستثمار المعرفي لدى الناقد؛ حتّى يتسنى له تحديد متطلباته واحتياجاته المنهجية والمعرفية، وكذا آلياته الإجرائية لرسم مشروع تحديثيّ له.

وقد شهدت الساحة اللسانية والنقدية في العصر الحديث نقاشا مستفيضا حول العلاقة التي تجمع النقد باللسانيات، دون إهمال الحديث عن التضافر المعرفي بينهما، ذلك التضافر الذي نبّه إليه جاكبسون، وتبنّاه

واحتضنه المسدي، وحاول صياغة نموذج للتضافر المعرفي بين النقد واللسانيات، مبيّنا أصوله ومرجعياته الفكرية، موضحا معالمه وأهدافه.

تهدف هذه المداخلة إلى معالجة أنموذج التضافر النقدي اللساني لدى المسدي، انطلاقا من الإشكالية الآتية: ما دوافع المسدي لتبني مشروع التضافر المعرفي بين النقد والعلوم الأخرى ولا سيما اللسانيات، وما طبيعة النموذج التضافري لديه؟.

1- المسدي بين اللسانيات والنقد، وفكرة نموذج التضافر النقدي اللساني:

على الرغم من اشتغال المسدي بقضايا البحث اللساني، إلاّ أنّ ذلك لم يمنعه من الاهتمام بقضايا النقد العربي الحديث، فقد تلقّى مقولات الحداثة النقدية ومناهجها ومصطلحاتها، وأعمل فيها فكره ذو الصبغة اللسانية فأبدع قراءات لنصوص إبداعية ونقدية، بعد أن خلط مزيجا منهجيا من اللسانيات والنقد، فقد " كان ممن شغلهم هَمُّ النص ،بحكم موقفه كلساني ،فوجد نفسه مولعا بمدارسة النصوص الأدبية في محاولة لمد الجسور بين اللسانيات والأدب "[1].

وكان لهذا التوجه العلمي لديه أثر جليّ في رسم معالم المسار النقدي عنده، فهو يرى أنّ اللسانيات أصبحت تمثّل مركز الاستقطاب بلا منازع داخل حقل البحوث الإنسانية، بفضل التطور الملحوظ الذي صاحب الدراسات اللسانية المعاصرة، فأصبحت جلّ العلوم – والنقد أحدها -، تلتجئ إلى اللسانيات، للأخذ ببعض ما أفرزته من تقريرات علميّة وطرائق مميزة في البحث

والاستخلاص.وهو ما أكّده المسدي بقوله " والذي نريد أن نصدح به تاليا هو أنّ النقد الأدبي مدين في جلّ ما يعرفه في أيامنا من نماء وازدهار إلى المعرفة اللغوية الحديثة "[2]

لقد كان " طبيعيا أن تستحيل اللسانيات مولّدا لشتّى المعارف، فهي كلّما التجأت إلى حقل من المعارف اقتحمته فغزت أسسه حتّى يصبح ذلك العلم نفسه ساعيا إليها: اقتحمت الأدب والتاريخ وعلم النّفس وعلم الاجتماع "[3]، فاستطاعت بهذه الخاصية أن تنشئ ما سمّي بتمازج الاختصاصات، وتولّد مبدأ الشمول والتفرّد، داخل البحوث في شتّى الحقول المعرفية، حين تخطت اللسانيات المعيارية وابتغت الموضوعية في بحوثها، أمّا " تمازج الاختصاص فإنّه يعدّ أسّا من أسس البحث العلمي وقد سنّت اللسانيات شريعته، لمّا تتبعت الظاهرة اللغوية حيثما كانت حتّى ولجت حقولا مغايرة لها، وكان من ثمار الممارسة المستحدثة بروز علوم هي بالضرورة نقطة تقاطع علمين على الأقل، فسميت معارف متمازجة الاختصاص، ومن بينها علم النفس اللغوي، والنقد اللساني والأسلوبية، وأمّا مبدأ التفرّد والشمول فإنّه ثمر من ثمار اللسانيات وصورة ذلك أن المزيج اللساني يظهر فيه التحليل والتأليف فيغدو تفاعلا قارا بين تفكيك الظاهرة إلى مركباتها والبحث عمّا يجمع الأجزاء من روابط مؤلفة فهو منهج يعتمد الاستقراء والاستنتاج معا بحيث يتعاضد التجريد والتصنيف فيكون مسار البحث من الكلّ إلى الأجزاء ومن الأجزاء إلى الكلّ حسبما تمليه الضرورة النوعية "[4]. فبفضل هذين المبدأين استطاعت اللسانيات أن تفرض هيمنتها على العديد من العلوم، فانتقلت اللسانيات من البحث عن خصائص

الخطاب الشعري، والخطاب الإخباري إلى دراسة طبيعة الخطابات الأخرى نحو: الخطاب العلمي، والخطاب الإشهاري، والخطاب الإيديولوجي، وغيرها من الخطابات.

لقد تمثل النقد الأدبي المقولة الشهيرة للساني دي سوسير " دراسة اللغة في ذاتها ولأجل ذاتها " فظهرت نتيجة هذا التمثل عدة مناهج نقدية دعا أصحابها إلى عزل النص الأدبي عن كل مؤثر خارجي ،أي الثورة على المنهج السياقي الذي هيمن مدة على النصوص الأدبية، حين تعامل معها النقاد انطلاقا من تواشج النقد باللسانيات، وقد رأى المسدي أنّ " معظم المساهمين اليوم في شركة الأدب والنقد هو المعرفة اللسانية بلا منازع ، هي أكبر الشركاء خطرا وأشدهم تأثيرا وأوفرهم حصة ونصيبا لأنها الأقدر على المقايضة الفكرية في كل حين "[5]. ولا شك في ذلك؛ لأن اللسانيات اليوم بلغت شأوا لم يبلغه علم من العلوم الأخرى حتى صارت مرجعية لكثير من العلوم، بفضل الموضوعية التي اتسمت بها بحوثها، ونظرياتها المتجددة.

هذا الذي جعل المسدي يسعى سعيا حثيثا ليلفت نظر الباحثين والدارسين إلى أن هناك مجالا رحبا للتفاعل الخصب بين النقد واللسانيات.

لقد توالت على مجال النقد الأدبي " سلسلة من التأثيرات ما فتئت تغيّره باستمرار على الصعيد المنهجي لدرجة أصبح معها ممتنعا عن التحديد، يكفي أن نتذكر النموذج السوسوري، ومنتدى الشكلانيين الروس، وصوتيات منتدى براغ، وشعريات رومان جاكبسون، ومقالات إميل بنفنيست، ونماذج

النحو التوليدي، ويكفي بعد ذلك قراءة أعمال رولان بارت في تتابعها الكرونولوجي، لتبيُّن الكيفية التي تتغيّر بها مقاربة النصوص الأدبية بكيفية مستديمة عند ناقد بالذات، وقد أضفت محاولات تشييد علم الأدب اتكاء على اللسانيات العامة إلى مساءلة جوهر الأدب بكيفية لا نهائية"[6].

يعد مفهوم النقد من بين المفاهيم الأكثر جاهزية وقابلية للتغيير، ونظرا لهذه الخصيصة فإن مفهوم النقد أخذ " يتغير بتغير ارتباطاته مع علم اللغة أو علم النحو أو مع الأدب بأنماطه وأقسامه، فإذا ما تغيرت العلاقات وهي عرضة للتغير كل حين فإن النقد – مفهوما – سوف يعترضه التغيير لا محالة "[7].

ولعلّ هذا الأمر هو الذي انطلق منه المسدي ليبني جسورا معرفية بين النقد واللسانيات ،أثرت لديه نموذج التضافر النقدي اللساني ، فما المقصود بهذا النموذج وما مرجعياته ،وهل جسد في أرض الواقع ،وهل له تطبيقات في البحوث اللسانية العربية المعاصرة .

2- التضافر المعرفي بين النقد والعلوم الأخرى في نظر المسدي :

إنّ المطّلع على التراث النقدي يدرك لا محالة بأن النقد الأدبي نشأ في كنف التواشج مع علوم أخرى وخاصة الإنسانية منها ،وهو في علاقاته مع تلك العلوم في تلك الفترة يعد ظاهرة عفوية يمكن ردها إلى موسوعية المؤلف ، أما في عصرنا الحالي فهو خلاف ذلك تماما فقد أضحى داخل منظومة متكاملة تدعى التضافر العلمي داخل مجال النقد الأدبي " إن التضافر العلمي في مجال النقد

الأدبي ليس في حقيقة أخرى شيئا طارئا بل لعله كان منذ القديم في تلازم مطرد رغم أن الوعي به لم يكن على ما أصبح عليه الآن ،لأننا نتعامل اليوم مع مبدأ توالج العلوم من موقع الاستثمار المعرفي مسلمين في ذلك بأن هناك فرقا جوهريا بين التقاء علمين على سبيل الصدفة والتقائهما على أساس الاستدعاء النظامي؛ فالتضافر بهذا المعنى الجديد نسق منهجي ذو قواعد في أساسياته؛ لأنّه ينطلق من تخاصب الثقافتين، ويرمي إلى توظيف إحداهما خدمة للأخرى "[8]، والصدفة التي يعنيها المسدي في هذا المقام هي اكتساب الناقد لثقافة في التاريخ أو الفلسفة أو علوم أخرى، وهي ليست بالضرورة من مستلزمات المعرفة النقدية؛ لأنّها ثقافة مكتسبة من غير مورد الأدب – على حدّ تعبيره- .

وقديما التقى النقد بالفلسفة وطرقت الفلسفة أبواب الأدب من عدّة جهات، من باب البلاغة ومن باب الخطابة وغيرهما، ثمّ خالط النقد والأدب علمَ التاريخ حتّى أصبح الاعتقاد جازما بأنّ المنهج العلمي في النقد الأدبي هو المنهج التاريخي، يقول المسدي في هذا الشأن " كلّ ذلك قد كان وهذا الذي كان بين الفلسفة والأدب ثمّ بين الأدب والتاريخ، قد بثمراته الفكرية البليغة، ولكن هذا الإنجاز قد تحقّق في غياب القصد المرسوم بذاته "[9]؛ أي لم يكن مبدأ التضافر غاية في حدّ ذاته بل حصل بعفوية تحت غطاء تعدد المعارف لدى الناقد، كما لم تكن منهجية التضافر المعرفي واضحة المعالم، ولكن سرعان ما بدأ " الوعي الجديد يتشكّل في المنظور المنهجي مع صورة أخرى من صور التضافر الفكري، جاءت من تلاقح الأدب وما إليه، مع علمين آخرين من العلوم الإنسانية كانا في بداياتهما قسمين فرعيين من أقسام الفلسفة، ثمّ اشتدّ

عودهما وتكاملا فاستقام كلّ واحد منهما مؤسسة علمية قائمة بنفسها "[10]، وأول هذين العلمين اللذين أشار إليهما المسدي في قوله هو: علم النفس، وثانيهما علم الاجتماع، وهما من العلوم التي تواشجت مع الأدب في نطاق البحث بين الباطن الانفعالي والظاهر السلوكي بالنسبة للأول، واجتماعية الأدب وسوسيولوجية النقد في الثاني.

وفي خضم هذا التصور بدأ الوعي بوزن التضافر ينجلي أكثر ممّا كان عليه، حين تمازج الأدب والنقد مع التاريخ والفلسفة، وقد " تجسّم ذلك فعلا في مستوى المفاهيم المختزلة والمعبّر عنها بالمصطلحات المتجرّدة، وظهر مصطلح منحوت يدلّ على المنهج الجامع بين النقد الأدبي والتحليل النفسي، ومصطلح آخر للدلالة على المنهج الجامع بين النقد الأدبي والتحليل الاجتماعي"[11]، هذه هي رؤية المسدي لتمازج تلك العلوم مع النقد الأدبي، فما رؤيته لتمازج النقد باللسانيات؟.

3- التضافر المعرفي بين اللسانيات والنقد من منظور المسدي:

يرى المسدي بأنّ نقطة التحوّل في هذا النوع من التضافر، أو القفزة الكبرى – كما اصطلح عليها هو- قد جاءت " عندما تركّز الاهتمام النظري على الاقتران الحاصل بين اللسانيات والنقد الأدبي، وعندئذ لن يبقى شيء من النقد على الوضع الذي كان عليه، وسرّ الأسرار في الأمر أنّ هذا التضافر المنهجي هو الذي فجّر النظرية النقدية، وهو الذي بمفعول ذلك التفجير قد أعاد ترتيب أوراق المنهج وأقام توظيبا جديدا داخل بيت المعرفة، فأصبح التضافر ذاته

محورا من محاور التأسيس الفكري، وبالتالي عمدة من عمد بناء النظرية العلمية قاطبة "[12]؛ أي إنّ مردّ نشأة المناهج النقدية في الأدب، والتي اعتمدت في دراسة النصوص وتحليلها هو: المعرفة اللسانية وإفرازاتها، التي قدّمت جملة من التصورات للأدب تخللت مختلف التحليلات، وإن تباعدت على صعيد الممارسة، فلا وجود لتفكير في الأدب من دون تفكير في اللغة، فاللغة " هي المادة الأولى التي يستمدّ منها الأديب طرائق نسوجه حين يبدع لوحة أو لوحات أدبيّة، في عمله الأدبي"[13]، ومن هنا كان لزاما أن نقف عند إسهام اللسانيات في النقد الأدبي.

4- طبيعة التضافر المعرفي بين اللسانيات والنقد من منظور المسدي:

ربط المسدي تاريخ التضافر النقدي اللساني، بعلم من أعلام اللسانيات هو رومان جاكبسون، والذي مثّل في نظر المسدي منعرجا حاسما في تاريخ العلاقة الوشيجة بين العلم اللغوي والعلم النقدي من خلال ما جاء في مقالته الشهيرة " اللسانيات والشعرية " ودعوته إلى تبني التضافر المعرفي بين العلوم، يقول المسدي" لقد كان لهذا اللساني – يقصد رومان جاكبسون – المهاجر فضل بيّن في تحقيق القفزة المعرفية التي أنجزتها تضافرية البحث بين حقل اللغويات وحقل الأدبيات، وليس من المغالاة في شيء أن نقول إنّه قد أسس الرابطة التكاملية بين العلمين على قواعدها الإيبستيمية الدائمة دون أن يكون على تشبّع قوي بخطورة المنعرج الذي كان يسطره "[14]، حين دعا إلى إخصاب النقد باللسانيات في إطار التضافر المعرفي.

لم يغفل المسدي الحديث عن إدوار سابير وإسهاماته في هذا النوع من التضافر المعرفي، من خلال ما قدّمه في نظريته التي وصفت بالذهنية، والتي لم يكتب لها الشيوع والذيوع على نحو من النظريات اللسانية الأخرى، ولكن مع ذلك فقد تبنّى الكثير من الباحثين والدارسين هذا المفهوم كلّ حسب توجهه، وظلّ دائرا في فلك الدراسات النقدية اللسانية.

إنّ كان بعض الباحثين يرى في علاقة النقد باللسانيات نوعا من التبعية السلبية، فإنّ للمسدي رأيا آخر، فهو يراها بمنظور إيجابيّ معللا ذلك، ويعطي للتضافر أبعادا عميقة، يقول مبيّنا وجهة نظره " فالتبعية في ما نبسطه هي المقياس الذي به نتساءل كيف ينتهي التضافر المعرفي بين حقلين من حقول العلم إلى أن يصبح كل واحد منهما رهين الخطى التي يقطعها الآخر في صحبته على درب جسور التماس المشترك، فكأنّه قران متعة قد تحوّل إلى اقتران محايثة، وهذا ما نزعم أنّه حاصل أو كالحاصل في أمر علاقة اللسانيات بالنقد الأدبي: هو حاصل فعلا في نظر من يقرأ لوحة المعرفة في طبقاتها المتراكبة بكثافة شديدة، وهو الحاصل لأنّه من المظنون أن نؤسس له بما يكفل له الاندراج ضمن الجرعة الوسطى من الثقافة التي ينبغي أن تشيع، فالتبعية المتبادلة التي نقصد إليها لا تحمل تلك الشحنة من الهجانة التي تصاحب لفظ التبعية في التدوال العام، إنّها الصورة الجديدة لمفهوم التضايف كما سنته الفلسفة الأرسطية على وجه التدقيق، بحيث إذا نطقت بكلمة الأب كان لزاما أن تستحضر في لحظتها مفهوما آخر هو مفهوم الابن، سواء على التذكير أو التأنيث "[15]، فالتبعية في نظر المسدي نوع من التجاذب الحاصل بين اللسانيات

والنقد داخل دائرة التضافر المعرفي، ليأخذ كلّ منهما بحظ من الآخر، ثمّ يبيّن المسدي وجهة نظره لهذا النوع من التضافر قياسا على ما تفرزه جملة من تواشجات بين مفاهيم أربعة هي بمثابة مرجعيات نشترك جميعا في إدراكها، وقد حدّها المسدي بأربع[16]: وهي الأدب والنقد واللغة واللسانيات، وبتمازجها – كما عبّر المسدي – ينتج لدينا ستة تضافرات معرفية ضمن علوم مختلفة على النحو الآتي:

1- الأدب × اللغة = فقه اللغة (حقل لممارسة شرح النصوص بإيضاح مفرداتها من معاجم اللغة).

2- الأدب × اللسانيات = الأسلوبية (التشخيص التحليلي المتجه صوب مميزات تركيب الكلام، ممّا لا تتيحه المعاجم، وتبيّنه المقولات البلاغية)

3- اللغة × اللسانيات =الكليّات (النواميس العامة التي تشترك فيها الألسن البشرية)

4- الأدب × النقد = الأدبية (المفهوم المستنبط من محاكاة عمل البحث اللساني عند بحثه عن الكليات اللغوية)

5- النقد × اللسانيات = الخطاب (منطقة أدبية الأداء التداولي وتداولية الأداء الأدبي)

6- اللغة × النقد = الدلالة (بحث عن المعنى في نطاق زماني ومكاني)

وحصول هذه التزاوجات لا يعني بالضرورة " رسما جديدا لخريطة الحقول الفكرية، ولكنّها تعني إخصابا معرفيا يقوم من النسيج العلمي الظاهر مقام البطانة المتعيّنة على مقاس الرداء، وهو بالتحديد مقام المنوال من كلّ أنموذج تفسيري "[17].

5- محطات التضافر المعرفي بين اللسانيات والنقد الأدبي:

مهّد المسدي لنموذج التضافر النقدي اللساني بجملة من المحطات التي مرّ بها التمازج بين النقد واللسانيات؛ ليصبح نموذجا قارّا في رأيه، له مقوماته ودعائمه.

يرى المسدي بأنّ أول محطة للتضافر النقدي اللساني هي تلك المرحلة التي كانت فيها اللسانيات خدما للنص الأدبي، وأمّا الثانية فهي أنّ اللسانيات خدم للأدبية بذاتها، يقول " إننا لو أردنا أن نستقرئ الرابطة التضافرية بين اللسانيات والنقد الأدبي من موقع الاستكشاف الإيبستيمي، لأمكننا أن نرصد منعرجا قويا قسّم التضافر التاريخي إلى مرحلتين: في الأولى كانت اللسانيات في خدمة نص الأدب "[18]، ففي هذه المرحلة كان اللساني يعمل جنبا إلى جنب مع الناقد الأدبي من دون وجود لنتوءات الفوارق العلمية بينهما، وفيها برزت أهم المقاربات النصية، خاصة في المجال الأسلوبي، بداية من شارل بالي مرورا بماروزو إلى سبيتزر وصولا إلى ريفاتير... وأمّا الثانية فانبثقت فيها " وضعية فكرية جديدة أساسها أنّ اللسانيات ليست فقط في خدمة نص الأدب وإنّما هي أيضا في خدمة الأدبيّة بذاتها "[19]، وقد ظهرت حين انتشرت الرغبة في استثمار

نموذج جاكبسون، وقد برزت في هذه المرحلة مفاهيم الشعرية والخطاب والكليات وتأسست المباحث المنكبّة على آليات التلقي وعلى تقنيات السرد.

وعليه يمكن اعتبار المرحلة الأولى إنجازا من إنجازات اللساني والناقد معا، وأمّا الثانية فهي من إنجاز النقاد حين استعانوا بالمعرفة اللسانية في إطار تمازج العلوم والمعارف الإنسانية، أو مرحلة الدال والمدلول كمّا عبّر المسدي عنها.

المحطّة الثانية: العمل في حقل الأدب خادم لمعرفة الظاهرة اللغوية، وتتمثّل في" أن ترتاد اللسانيات معين الأدب لتستثمر الإنجاز التضافري لفائدتها، قبل كلّ شيء، فيكون العمل في حقل الأدب خادما لمعرفة الظاهرة اللغوية، وهذا لا ينفي وجاهة استمرار العمل في حقل الأدب خدمة للأدب ولكنّه الإضافة النوعية التي تيسّر مبدأ الانتقال من منصة إيبستيمية إلى أخرى "[20]، أي إنّ اللساني يتخذّ من الأدب جسرا لاستكشاف الظاهرة اللغوية، وهذا العمل يقتصر على اللساني دون سواه، وفي هذه المحطة – كما يرى المسدي – خروج من قيود لحظة الدال ولحظة المدلول اللتين قيّدتا النقد الأدبي واللسانيات في مراحل التمازج الأولى، أي بحث في أفق جديد يدعى بلحظة الدلالة، وهي " لحظة الانصهار الذهني التي يمّحي فيها حضور الدال بصفاته الفيزيائية، ويخرج فيها المدلول من كينونته الأنطولوجية ذات الإيحاء الهلامي"[21]، وفيها أدرك اللسانيون أنّ المستوى الأعلى للغة – وهي آلية تدوير النصوص الأدبية- هو المستوى التداولي، أو بمعنى آخر مستوى الصياغة الفنية كما سمّاه المسدي،

وكان هذا ديدنهم في المدارس اللسانية طيلة عقود القرن العشرين وفق شروط الميثاق المنهجي الرابط بين أبعاد النظريات اللسانية.

ثمّ انتقل الفكري اللساني إلى المبحث العرفاني (الإدراكي)، ومعه أدرك اللسانيون أنّ اللغة مكوّن أساسي يتألف من شقين: فطري ومكتسب، يعتمد عليه الإنسان في مجال الإبداع من خلال تفعيله للقدرة الشعرية للغة(شعرية اللغة) ولهذا " كان يمكن للنظرية الإدراكية في حقل البحوث اللسانية أن تفتح قناة تضافرية جديدة "[22]، من خلال الربط بين آليات البحث في العمل الذهني وآليات البحث في شعرية اللغة، داخل دائرة الإبداع.

6- التواصل النقدي والأنموذج اللساني من منظور المسدي:

حاول المسدي الربط بين اللسانيات والنقد من خلال الوظيفة التي يحقّقها خطاب النقد؛ لأنّ " الوظيفة التواصلية لخطاب النقد تجسّدها استراتيجية مزدوجة؛ لأنّها تنطلق من الدائرة الداخلية ثمّ تخرج إلى الفضاء الخارجي فيما قد نسميه بسيمياء التواصل المعرفي "[23]، في حين نجد أنّ " أنموذج اللسانيات (...) قادر على إمدادنا بالبرهان الشاهد على أنّ استراتيجية إبلاغ المعرفة لا تقل شأنا عن المعرفة ذاتها، بل لعلّها في بعض المراحل التاريخية أشد وقعا وأنفذ إنجازا "[24]، ومعنى ذلك أنّ خطاب النقد يتكئ على النص الأدبي في بناء التواصل المعرفي، وأداته في ذلك اللغة، من خلال إقامة تواشج بين النقد واللسانيات عبر جسر اللغة.

يرى المسدي بأنّ التضافر بين اللسانيات والنقد والممتد عبر فترات زمنية متعاقبة ولّد نوعا من التلاحم بين العلمين، حتّى أنّ الدارس الحذق لا يكاد يميّز أيهما استفاد من الآخر جراء التأثير والتأثر الحاصل بينهما، يقول المسدي في هذا الشأن " لقد مثّل الأنموذج اللساني في توالجه مع الخطاب النقدي صورة تكاد تبلغ تمامها من حيث تعادل الكسب والسخاء، حتّى إنّك لو رصدت حركة التأثر والتأثير لمّا تيسّر لك أن تجزم إن كان النقد قد استفاد من اللسانيات أكثر ممّا استفادت منه أم كانت فائدة الخطاب اللساني من الخطاب النقدي هي الأرجح "[25].

في إطار التضافر النقدي اللساني، يشير المسدي إلى حقيقة مفادها أنّ اللسانيات ولجت حقل النقد الأدبي من طريق علم الأسلوب، وأنّ النقد استفاد من مقولات اللسانيات من طريق المنهج البنوي، يقول " من خلال علم الأسلوب تسللت اللسانيات إلى النقد الأدبي، ومن خلال المنهج البنوي أطلّ النقد على مقولات علم اللسان، فاستعارها حتّى كاد يمتلكها وامتزجت الرؤى فلم يبق من فيصل لمقايسة درجة التأثر بدرجة التأثير بين هذا وذاك ذهابا، وبين هذا وذاك إيابا إلاّ مدى ما يعرف به الناقد من اختصاص في البحث والمعرفة، أمن اللسانيين هو بدءا أم من النقاد "[26].

عزا المسدي ظهور كثير من المفاهيم والتصورات والمصطلحات في حقل الدراسات النقدية إلى التضافر بين النقد واللسانيات، وتضييق المسافات بين اللساني والناقد، يقول في هذا الشأن " وسواء أكان ما حمله الخطاب النقدي من رسالة التثقيف اللغوي الجديد ثمرة من ثمرات الوعي المقصود بذاته في

إدراك اللسانيين أم جاء اتفاقا فإن الذي لا مجال للارتياب فيه هو أنّ عددا من المفاهيم المبدئية وعددا من الأدوات التصورية وعددا من المصطلحات الإجرائية ما كان لها أن تشيع بالتداول في كتاباتنا النقدية العربية، لولا هذا التطاعم الذي أضفى عليها لدى قراء النقد مقبولية متسامية بعد أن يسّر انسيابها عبر نسيج الخطاب النقدي يوم انزاحت الجفوة بين صانعي العلم اللغوي ومحترفي علم الأدب "[27].

ومثال ذلك مفهوم العلامة حين انتقل من اللسانيات إلى نقد الأدب عبر جسر اللغة التي ينسج النص وفق آلياتها خطابات عدّة " فقد احتدّ الوعي بأنّ الأدب نص وأنّ النص لغة وأنّ اللغة علامات عرفية اجتمعت بحكم قرائن تركيبية موثوق بدلالتها الاصطلاحية "[28].

ومثال ذلك أيضا الإقرار بمقولة البنية وبمبدأ الوظيفة التي يؤديها كل نسق بنائي وصعوبة التمييز بينهما لدى النقاد لولا معطيات اللسانيات، " فلم يكن لحركة النقد أن تستوعب إحكام التمييز غير الفاصل بين البينة والوظيفة لولا استطلاع المتابعين من النقاد لما تدقق في تنظيرات اللسانيين عند وضعهم اللغة بأنّها جهاز يتحرك طبقا لتكامل أنظمة متوالجة: نظام الصوتيات، ونظام الصيغ، ونظام التراكيب، ونظام الدلالات "[29]، فالحروف تؤلف الكلمات والكلمات تؤلف التراكيب والدلالة تتمثل في جميعا، وكلّ ذلك يشكّل نظاما متداخلا محكما متكاملا، عبّر عنه اللسانيون باللغة، فاستقى النقاد هذا التصور من لدن اللسانيين، وفهموا أنّ تعاضد الأنظمة داخل الظاهرة اللغوية هو الذي يضفي عليها سمة الجهاز المفاهيمي.

لمّا تشبّع النقاد بأدوات الكشف اللساني " أدركوا كيف يتأسس معرفيا ارتباط الحدّ العضوي بالحدّ الوظيفي في شأن الظاهرة اللغوية، أيّا كانت تجلياتها النوعية فلم يكن بينهم وبين كشف أسرار الأدب إلاّ خطوة، حين قطعوها فهموا كيف تتحول البنية إلى وظيفة، وكيف تتحول العلامة إلى دلالة ، واتّضح مرة أخرى أنّ خطاب النقد في مناخنا العربي أفضل معلم لهذه الأشياء "[30]. وفي هذا القول نلمس دعوة من المسدي إلى فتح باب النموذج اللساني ليلج حقل النقد الأدبي العربي؛ لأداء مهمة التواصل الثقافي ضمن الأطر المعرفية الواسعة.

7- آليات اشتغال اللساني والناقد ضمن نموذج التضافر النقدي اللساني حسب تصور المسدي

إنّ المتفحص لعلاقة النقد باللسانيات ليجد ارتباطا بينهما، بل عدّة أضرب من الروابط " تتعدد بتعدد وجهات النظر، وتتكاثر بتكاثر منطلقات البحث ومقاصده "[31]، لأنّه لا يمكن لك أن تضبط رحلة النص بين المعرفة اللغوية والمعرفة النقدية، ففي ذلك ضبط لرحلة اللغة بين علم الأدب وعلم اللسان.

بناء على ما قدّمه المسدي في حديثه عن نموذج التضافر النقدي اللساني[32] يمكن استنباط جملة من الآليات، نحدّدها فيما يلي:

- التحصيل والمراجعة: تكون علاقة اللسانيات بالنقد الأدبي موضوع هو واحد في ظاهره، متعدد في ما وراء ظاهره، يتكاثر من حيث المضمون، ومن حيث المقاصد، وهذا التكاثر محكوم بختلاف زوايا النظر.

- زاوية الاهتمام: لا يركز اللساني على مستويات الكلام حين يقف على طبيعة العلاقة التي تربط مجال عمله بمجال النقد الأدبي، بل يتعدى ذلك إلى النظر في خصائص الخطاب الأدبي، كي يحدّد سمته التميزية، في حين يركز الناقد على أدوات التحليل النقدي، حيث يسائل المعرفة اللسانية مستعينا بخبراتها لكشف خبايا الكلام، ويبيّن مواطن الإبداع.

- صيانة النص: وحظ الناقد من اللسانيات في هذا، أن يعرف مستويين: الأول يتعلق بصون الكلام، والثاني متعلق بصون النص، والفرق بيّن بينهما، ففيه احتكام للقاعدة النحوية، واحتكام لدرجة الإبداع.

- التضافر النفعي: وتحكمه طبيعة العلاقة القائمة بين اللسانيات والنقد، وهي في هذا المقام قائمة على مبدأ التوظيف.

- نقطة الانطلاق: الناقد أولا ثمّ اللساني ثانيا، فالناقد يستلهم من المعرفة اللسانية بعض طرقها في التناول ليقتحم القلعة الأدبية، واللساني يتخذ من اللغة موضوعا، وهي في الوقت نفسه موضوع لأكثر من حقل لدى الإنسان.

خاتمة:

- يعدّ اللساني التونسي عبد السلام المسدي من أوائل الباحثين الذين أثاروا فكرة التضافر المعرفي بين النقد واللساني، وإليه ينسب مشروع التضافر النقدي اللساني.

- أسسّ المسدي نموذج التضافر النقدي اللساني، انطلاقا من فكرة تلاقح اللسانيات بالنقد، في إطار ما يعرف حاليا بالدراسات البينية.

- استعمل المسدي عدة مصطلحات في سبيل بيان نموذج التضافر النقدي اللساني، ومنها التطاعم التواشج التلاقح، وأخرى ذكرت في ثنايا المداخلة، وكلّها تكاد تتحد في دلالاتها مع مصطلح التضافر.

- عزا المسدي ظهور كثير من المفاهيم والتصورات والمصطلحات في حقل الدراسات النقدية إلى التضافر الحاصل بين النقد واللسانيات.

- علم الأسلوب – في نظر المسدي – هو الباب الذي ولجت منه اللسانيات إلى النقد، فكانت بداية التضافر بينهما.

- يبدو أنّ هذا النموذج الذي أسسه المسدي، من النماذج التضافرية الناجعة؛ لأنّه لقي صدى في الأوساط الباحثين العرب، ولعلّ كثرة الدراسات في هذا المجال (علاقة النقد باللسانيات) دليل كاف على نجاعته. خاصة في ظل الثورة اللسانية المعاصرة التي هيّأت للنقد الأدبي أرضية معرفية خصبة.

الهوامش:

[1] عبد الغني بارة، إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة ،ط 1، 2005، ص 224.

[2] عبد السلام المسدي، الأدب وخطاب النقد، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، الطبعة الأولى، 2004، ص 09.

[3] عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربيّة، الدار العربية للكتاب، تونس، الطبعة الثانية، 1986، ص10.

[4] عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربيّة، ص11.

[5] المسدي، الأدب وخطاب النقد، ص 18.

[6] جان لوي كابانس، ترجمة عبد الجليل الأزدي، النقد الأدبي والعلوم الإنسانية، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2002، ص101.

[7] محمد رضا مبارك، مفهوم النقد من الأسلوبية إلى تحليل الخطاب، مجلة فصول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ع 65، 2005 ، ص 110.

[8] المسدي، الأدب وخطاب النقد، ص15.

[9] المسدي، الأدب وخطاب النقد،ص17.

[10] المسدي، الأدب وخطاب النقد،ص17.

[11] المسدي، الأدب وخطاب النقد،ص18.

[12] المسدي، الأدب وخطاب النقد،ص18.

[13] مراد عبد الملك، المدارس النقدية المعاصرة، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، 2009، ص199.

[14] المسدي، الأدب وخطاب النقد ، ص112.

[15] المسدي، الأدب وخطاب النقد ، ص98.

[16] ينظر: المسدي، الأدب وخطاب النقد ، ص98.

[17] المسدي، الأدب وخطاب النقد ، ص99.

[18] المسدي، الأدب وخطاب النقد ، ص19.

[19] المسدي، الأدب وخطاب النقد ، ص19.

[20] المسدي، الأدب وخطاب النقد ، ص20.

[21] المسدي، الأدب وخطاب النقد ، ص21.

[22] المسدي، الأدب وخطاب النقد ، ص21.

[23] المسدي، الأدب وخطاب النقد ، ص60.

[24] المسدي، الأدب وخطاب النقد ، ص60.

[25] المسدي، الأدب وخطاب النقد ، ص67.

[26] المسدي، الأدب وخطاب النقد ، ص67.

[27] المسدي، الأدب وخطاب النقد ، ص67.

[28] المسدي، الأدب وخطاب النقد ، ص69.

[29] المسدي، الأدب وخطاب النقد ، ص69.

[30] المسدي، الأدب وخطاب النقد ، ص70.

[31] المسدي، الأدب وخطاب النقد ، ص73.

[32] ينظر: المسدي، الأدب وخطاب النقد، ص73.